

في المغرب الإسلامي والعروبة

في ضوء الدراسات الأنثروبولوجية

دكتور عبد الباقي علي قصة

وردت الإشارة الى «بني مرينا» في شعر امرئ القيس في قوله :

ملوك بني حجر بن عمرو لساقون العشية يقتلوننا
فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مرينا

وحجر بن عمرو هو الجد الأكبر لامرئ القيس، ولكن الذي حدث أن الحارث بن عمرو (٤٩٠م) ابنه، وكان ملكا على كندة^(١) بعد أبيه، وسقوط دولة التبابعة في اليمن على يد الأحباش، أضعف من قوة كندة فوجه نظره شطر العراق، وطمع في ضم الحيرة الى مملكته الصغيرة، وراح يتربص الفرص لتحقيق مخطمعه، وقد حانت الفرصة حينما تغير كسرى «قباذ» ملك الفرس على «المنذر بن ماء السماء» ملك الحيرة بسبب امتناع الأخير عن اعتناق المزدكية^(٢) ومن هنا نجد أن الحارث يتجه بقواته ويغزو الحيرة، بتحريض من كسرى «قباذ»، وذلك لاعتناق الحارث المذهب المزدكي، ولكن الأمور لا تصفو تماما للحارث فسرعان ما قتل «قباذ» وآل الملك الى «أبو شروان» الذي فتن بالمزدكية، وأعاد المنذر بن ماء السماء الى ملك الحيرة، وكان ذلك شديداً على الحارث، فنشبت بينه وبين المنذر معركة انتهت بقتل الحارث وولديه في ديار بني مرينا^(٣).

موطن المنيين الأصلي :

كان الأمل عندما زرت قلعة المنصورة مع قسم التاريخ بجامعة قسنطينة معرفة شيء عن هذه القلعة التي تقوم أطلالها في إحدى ضواحي تلمسان، وقد طلب التي إلقاء كلمة عن هذه القلعة، ومن أجل الحصول على معلومات تاريخية عن هذه القلعة لحأت إلى المركز السياحي بتلمسان التي أمدتني بمطبوعة بالعربية وأخرى بالفرنسية، فقرأت فيها «المنيون عرب رحل قدماء، حاصروا تلمسان سبع مرات بعد أن قضوا على العرش الموحدى بالمغرب الأقصى ففي سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) بدأ الحصار الدامي الذي عزل تلمسان عن العالم مدة ثمان سنوات (٦٩٨هـ - ١٢٩٩م إلى ٧٠٦ - ١٣٠٧م) وشيدوا أثناء الحصار مدينة المنصورة المنقخرة بمسجدها وقصرها ومخازنها وحدائقها وحماماتها وديارها».

وقد أثار انتباهي الى ما عرضته في التمهيد السابق قول الشرة «عرب رحل قدماء» اذ كيف لعرب رحل أن يبنوا هذه القلعة، بل أن يبنوا «مدينة المنصورة المنقخرة بمسجدها وقصرها ومخازنها وحدائقها الخ».

من هنا أدركت أن الموضوع في حاجة لدراسة للبحث عن موطن هؤلاء العرب الأول، وكيف هاجروا إلى شمال افريقية، ومتى حدث ذلك؟ وهل كان ذلك قبل الاسلام، الشيء الذي توحي به كلمة «عرب رحل قدماء» مع أن ما قاموا به من بناء يمثل حتى الآن في قلعتهم التي تمتاز منارتها عن قلعة الحمادين بالانقافان والزعرقة، لذلك رجحت أن يكون هؤلاء العرب تواجد قبل وصولهم الى المغرب في مركز حضاري هام، عرفوا فيه الاستقرار، ودرسوا فن المعمار وأنفقوه، ومن ثم لا محل لوصفهم بالعرب الرحل، لأن البلو لا يعرفون من البناء إلا الخيام ويبيت الشعر، أما هؤلاء فقد أسسوا مباني ذات قيمة حضارية فلا بد أن تكون قد مضت فترة تاريخية طويلة على انتفاخ من البداوة الى الحضارة.

وقد كان الأمل أيضا أن يعطيني صاحب كتاب «معهم قبائل العرب القديمة والحديثة» مادة علمية غيرة في هذا الموضوع حسب المعتاد إلا أنه

وللأسف لم يعط من المادة إلا القدر الذي أثبت فيه عروبة هذه القبيلة وموطنها الأصلي حيث قال «مهنّا: بطن كان يقطن الحيرة وينتسب الى لحم من القحطانية»^(٤).

ومن هنا يتبين لنا أنهم نشأوا في منطقة اليمن ذات الحضارة العريقة، وانتقلوا مع اللخمين الى وادي الرافدين، ومعنى ذلك أنهم حينما وصلوا بالعرب الرحل يعتبر هذا الوصف ليس له مدلول تاريخي، وأنهم أصحاب قدم راسخة في الحضارة العربية القديمة منذ فجر التاريخ حتى قيام دولة الاسلام، وانتشاره في المشرق والمغرب.

كيف وصل الميرنيون الى المغرب الأقصى؟

كان لا بد - والحالة هذه - من الرجوع الى العلامة عبد الرحمن بن خلدون للفصل في هذا الموضوع ولكي نجيبنا على هذا التساؤل، ولكننا وجدنا ابن خلدون يقول في معرض حديثه عن تلمسان «فكان - أي أبا سعيد بن خليفة - كثيراً ما يخرج من زناتة من أهل المغرب الأوسط مثل مغراوة وبني بغرن وبني بلومو وبني عبد الواد وتوجين وبني مهن»^(٥).

وفي الفصل الثامن من الكتاب الأول من الباب الثالث من المقدمة تحت عنوان «في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدّها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة» يقول «ثم اعتبروا بعد ذلك حال الدولتين هذا العهد لزنانة بني مهن» الى أن يقول «يقال ان عدد بني مهن لأوّل ملكهم كان ثلاثة آلاف».

ثم يقول «ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مهن رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة»^(٦) وذكر قصة ابن بطوطة حينما عاد من رحلته من المشرق (كانت الرحلة - من سنة ٧٢٥هـ - ٧٥٤هـ) ويبدو أن لونا من الاختلاط وقع بين بني مهن و قبيلة زناتة حتى ظن ابن خلدون أنها بطن من زناتة فقد قال في معرض حديثه عن مناصب الدولة «وأما دولة زناتة بالمغرب وأعظمها دولة بني مهن فلا أثر لاسم الحاجب عندهم»^(٧).

وإذا كان حديث ابن خلدون عن المغرب حديث خبير إلا أن حديثه عن أصل بني مرين يشوبه الغموض، وقد اعتبر بني مرين من زناتة مستدلاً بالوضعية الجغرافية، من ذلك قوله عن بعض شارات الملك ومنها الزايات «ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين - كما هو عند زناتة - وقد بلغت أيام السلطان أبي الحسن (وهو من بني مرين) فيما أدركناه مائة من الطول، ومائة من البنود ملونة بالحرير ومتسوجة بالذهب» (٨).

ومن ذلك قوله «وأما هذا العهد فأدركنا بالمغرب في الدولة المهنية لعنوانها وشيوخها ربما جليلاً لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصريهم بالأندلس» وهو يعني اتخاذ الخاتم والطرارز (٩).

ويقول ابن خلدون في معرض حديثه عن الدعاء للخليفة «وكذلك يعقوب ابن عبد الحق ما هذا (كنا) دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص، وثالث ملوكهم وتغلف بعض أهلهم عن شهود الجمعة ف قيل له: لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن له في الدعاء له، وكان ذلك سبباً في أخذهم بدعوته» إلى أن يقول «وكنا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين، فمكثوا يطاولونهم نحو من ثلاثين سنة، واستولوا على فاس واقتطعوها وأعماقاً من ملكهم، ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى حتى استولوا على كرسبهم بمراكش» (١٠) وهكذا انتقل هذا الخلط إلى بقية المؤرخين المحدثين حتى الشيخ عبد الرحمن الجليلي فهو يقول في التاريخ لبني مرين «المهنيون هم فخذ من بطون القبيلة العظيمة زناتة كانت مساكنهم ومواطنهم وراء تلمسان غرباً على ملوية، وجنوباً إلى نواحي سجلماسة - تافيلالت - وبصحراء فيقيق إلى أرجاء الأغواط وربما يخطون في ضلعهم إلى بلاد الراب» (١١) إلى أن يقول «وهم قوم مرهوب جانبهم، شديد بأسهم كثير جمعهم يضاؤون في مجتمعهم أمة العرب والفرس واليونان» (١٢).

وهنا نجد الشقة صارت بعيدة بين ابن خلدون والشيخ عبد الرحمن الجليلي فابن خلدون يرى أن عددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف بينما الشيخ عبد الرحمن يرى أنهم يضاؤون في مجتمعهم أمة العرب، فكيف تم فهم ذلك إذا لم يكن قد مر على هجرتهم إلى بلاد المغرب وقت طويل؟.

وضعية المرينيين في المغرب الأقصى والأوسط :

وقد أبلى بنو مرين بلاء حسنا في «نصرة الموحدين على خصومهم بني صنهاجة»^(١٣) إلا أنهم انقلبوا على الموحدين، ولم يزالوا يثيرون الفتن والغارات بأرجاء المغرب الأقصى بدافع التراحم على الملك والتنافس على الرئاسة حتى أحسوا ضعف دولة الموحدين، فافتحموا «ثلة» سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) ثم فتح أميرهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة مراكش سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) فقفزوا بذلك على عرش الموحدين.

وقد أصبح المرينيون قوة في البر والبحر، فقد كان لهم أسطول عظمت شوكته بالبحر المتوسط، والمحيط الأطلسي، في عهد السلطان أبي الحسن المريني فقد خرج من تونس بمسائة سفينة^(١٤)، وقد وصف المؤرخ الفرنسي «أندري جوليان» فيقول «إنه من أقوى الملوك وأعظم السلاطين على الإطلاق في القرن الرابع عشر الميلادي، ويقول ابن خلدون عن أبي الحسن: إن أساطيله كانت عند مرماه الجهاد مثل عدة النصارى وعديدهم»^(١٥) وقد صارت وهران في أيامهم ميناء بحريا كبيرا، كان عليه عبوس بن سعيد «وقد ضبطها ونقنها وملأها قوات ورجالا وسلاحا، وملأ مرساها أساطيل»^(١٦).

وقد سجل الشعر ذلك فقال أبو القاسم الروحي بمدح أبا الحسن حين وحده أقطار المغرب الثلاث سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) من قصيدة طويلة :

تملكت شطر الأرض كسبا وشطرها	وارثا فطاب الكل إرثا ومكسب
نجيش على الألواح والماء يمتطى	وجيش على الضمر السوابق يركب
وجيش من الاحسان والعدل والتقى	وذاك لعمر الله أغلى وأغلب
فلا مركب إلا يمين راكبا	ولا راكب إلا به ازدان مركب

آثار المنصورة أو مدينة المنصورة :

المشأمل فيما بقى من آثار في المنطقة نجد أن القلعة مازالت قائمة جهة الغرب، وفي مقابلها بقية سور لمدينة جهة المشرق بوابته الكبرى منحرفة قليلا

جهة الغرب ومن هنا يتبين أن القلعة غير المدينة وأن المنيين لم يبنوا خلال فترة
الحصار غير القلعة أو أنهم بنوا القلعة والمدينة فخرت المدينة وبقيت القلعة.

أما المدينة المتقابلة فقد بناها الموحدون، وسورها قائم حتى الآن، ذلك أن
عبد المؤمن بن علي حاصر تلمسان (١٧) سنة ٥٢٣ هـ (١١٤٣م) ولكنه عجز عن
فتحها أمام صمود المرابطين بقيادة تاشفين خليفة وابن علي بن تاشفين، واتجه
عبد المؤمن إلى وهران، ثم عاود تلمسان فدخلها.. وأصبحت تلمسان منذ
ذلك التاريخ عاصمة للموحدين، أما الذي ابتنى السور الموجود حالياً فهو أبو
عمران الموحدي، ولا تزال باب القرمادين قائم من أهم بقاياها» (١٨).

المنيون وبنو عبد الواد :

تعددت الأسباب التي أدت إلى الصراع بين بني مهن وبني عبد الواد،
فكان منها الرغبة في السيطرة والتوسع من طرف بني مهن، هذا بالإضافة إلى
«المنافسة على رئاسة زناتة والتشوف إلى السلطان المطلق بالمنغرب
الاسلامي» (١٩) ويعرض الشيخ عبد الرحمن الجبلاي لسبب ثالث يبدو غير
منطقي فيقول «لما أشرفت سفينة العراك والحرب بالأندلس على شفا المنحدر
والغرق، وانكشف للملك بني مهن انهزام دولة الاسلام هناك قد حانت أو
كادت، وكان شعور الدولة المنيية بالمسؤولية العظمى الملقاة على كاهلها يومئذ
قد تضاعفت بحكم أنها سيدة العدوتين، وأنها وارثة عرش الموحدين طالما
أخضعت لعرشهم الأندلس بما فيها من رعايا وملوك وشريف وصعولك فساءها
أن تضع الكارثة بالأندلس على مرأى ومسمع منها بدون أن تكون قد اغذت
هذه الحال المتوقعة عدتها، أو تخاطبها على الأقل لكيلا تتهم بين الأمم بالاهمال
وعدم الصلاحية للملك، فاهتمت وقتئذ بالعمل على مهزلة الاقتراب من
الساحل الشرقي باثخاذ عاصمة ثانية لها بالمغرب الأوسط لتيسر لها الدفاع عن
أرض الأندلس» (٢٠) قيمت تلمسان وعزمت على فتحها، ويبدو أن هذا الذي
خيل اليها أنه غير منطقي كان داخلاً في إطار استراتيجي للقيادة العسكرية
المنيية، من حيث إنها أرادت أن تكون هذه البلاد بلواتها داخلية في نفوذها،
حتى تستعين بهذه الثروة على خوض غمار حرب ضروس مع الأسبان.

وأدى ذلك إلى الحصار الذي فرضه المنيون على تلمسان، وبما يؤكد
وجهة النظر التي أهديناها أنه في سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) غزا أبو يوسف يعقوب

المهني سجلماسة (تافيلالت) فاقتمها، واستعمل في هجومه لأول مرة في تاريخ المغرب الإسلامي البارود، وأسر سادة بني عبد الواد وفيهم القائد عبد الملك، وفي ذلك يقول ابن خلدون «ولما فتح السلطان أبو يوسف المغرب، وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته وغلب عبد المؤمن على دار خلافتهم ومخارسهم، وافتتح طنجة وطوع سبعة مرقاً إلى العودة ونثر المغرب سما أملة إلى بلاد القبلة الجنوب - فوجه عزمه إلى افتتاح سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغللين عليها وإزالة دعوتهم إليها في العساكر واخشود في رجب من سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٤م) فنارها وقد حشد إليها أهل المغرب من زناتة والعرب واليهبر، وكافة الجنود والعساكر» (٢١).

ويؤيد ابن خلدون وجهة النظر التي تقول «أن العرب أول من استعمل المدافع النارية، قبل أوروبا بزمان ضوئيل، وأن أوروبا عرفت البارود وصناعته عن طريق العرب» (٢٢) وفي ذلك يقول «ونصب عليها - أي أبو اسحاق - آلات الحصار من الخنايق والعرادات وهندام التفتق القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزائنه أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة» (٢٣) وقد تم لبني مرين فتح سجلماسة وماحولها، أما السبب المباشر في غزو بني مرين لتلمسان إلى «إيواء صاحبها الثوار على دولة مرين، ولقد حاول من قبل استسلام هؤلاء الثوار المشاغبين وانتزاعهم من يد بني زيان «عبد الواد» فلم يسمحو له بذلك وحينئذ تقدم بنو مرين لحصار تلمسان ونصبوا عليها الخنايق، وأطلقت أيدي الجند فيها فعبثوا بها وأخذوها بالنهب والتحريب، ثم أقبلوا عنها، وإن كل ما كان بعد ذلك من عداوة أو ضغينة بين بني زيان (والمهنيين) كان منشؤها هذه الحادثة» ذلك أن عصيان أبي عامر وخروجه عن طاعة أبيه السلطان أبي يعقوب والتجائه إلى تلمسان واحتجائه بسلطانها عثمان بن يغمراس» (٢٤).

وينظم إلى هذا السبب المباشر سبب آخر أقل مباشرة ذلك أن ثابت بن مندبيل أمير مغراوة استصرخ السلطان أبي يوسف يعقوب سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) على ملك تلمسان عثمان بن يغمراس لرد عادية قومه عنه، فأرسل يوسف بشفاعته في ذلك إلى عثمان فرفضها، كل ذلك من وراء غزو تلمسان سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) وقد بدأ بأعمال تلمسان ففتح ندرومة وهنين ووهران ومزرغان، ومازونة ومستغانم وونشريس ومليانة والمدينة ونس وشرشال والبطحاء وتدلّس، واستولى على جميع ضواحي شلف كلها وأذعنت له مدينة الجزائر ماعدا تلمسان.

المريونيون بالأندلس :

في الوقت الذي حشد فيه أبو يوسف يعقوب المريني جنوده وخرج لغزو تلمسان غرة صفر سنة ٦٦٩هـ (١٢٨٠م) وماكاد يتحرك حتى جاءه من يستصرخه من بني الأحمر لنجدة المسلمين في الأندلس، فجمع كبار مستشاريه وعرض عليهم الأمر «فاتفقت كلمتهم جميعا على تقديم النجاد الأندلس وحمايتها على غزو تلمسان، فعزل السلطان يومئذ عن خطته المرسومة، وراسل صاحب تلمسان في الصلح»^(٢٥).

يقول الشيخ عبد الرحمن الجليلي «ولما حل المريونيون بالأندلس، وامتلكوا شطرا منها أخذت عقارب الحسد تدب في قلوب الأندلس من بني الأحمر وانتشر بينهم داء الأثرة، فعمد سلطانهم الى يغمراس الزناني طالبا مودته وصداقته وواصله بهدايا أندلسية فخمة وأموال عظيمة على أن يشغل عنه ملوك بني مرين بمشاغبتهم واحداث مشاكل لهم بالمغرب، وما كاد يشيع خبر اتصال أهل الأندلس يغمراس حتى بادر السلطان أبو يوسف المريني من صاحب تلمسان»^(٢٦) وقد تكرر ذلك من المرينيين رغم رفض بني زيان (بني عبد الواد) وهكذا أدى عدم التفاهم الى التلاحم، وكانت موقعة «وادي نافعة» حيث انتصر بنو مرين وأسسوا المنصورة أثناء حصارهم لتلمسان القديمة، وهو أطول حصار في التاريخ حيث دام ثماني سنين وثلاثة أشهر وأياما^(٢٧).

بناء المنصورة :

أثناء هذا الحصار قام أبو يوسف يعقوب المريني ببناء المنصورة على نحو أربع كيلومترات غربي تلمسان، وكان ذلك في شتاء سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م)، ويروي أن الذهب الذي طعمت به منارة هذه القلعة بلغ سبعمائة دينار، ثم السور الثاني حول المنصورة بعد أن انتشرت حولها المنازل والقصور الأنيقة والحمامات العامة والفنادق والأسواق وأجريت المياه بالبساتين سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) وقد وصفها ابن مرزوق الخطيب فقال «منصورة تلمسان التي لم ير الراءون مثلها ولا وصف الواصفون مثل وصفها، وأما قصرها ومسكن الأمام بها فقد رأيت كثيرا ممن دخله من المتجولين ممن رأى العراق ومصر والحباني القديمة في

الأندلس ومراكش أجمعوا كلهم على أن الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره، وبحق مآقالوه، وأما دار الفتح والبسة وما اتصل بها، والمشور فما أظن أن المعمور اشتمل على مثلها».

من المسئول عن تخريب المنصورة ؟

تقول النشرة التلمسانية «اغتيال السلطان أبو يوسف من طرف أحد مواليه فلك المهنيون الحصار، ورجعوا الى المغرب (الأقصى) فهدم التلمسانيون (يعني الزهانيين) المدينة، وكان على رأسها في ذلك الوقت أبو زهان، وكان ذلك انتقاما لما عاثوا من حموم اخصار الطويل».

ويقول الشيخ عبد الرحمن الجليلي «كان اغتيال السلطان أبي يوسف يعقوب المهني سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) سببا مباشرا في اخراج بني مرين عن تلمسان، وتفكك الحصار عن أهلها، فتفرقت يومئذ جنودهم واختلقت كلمتهم بموت أبي يوسف، وتنازع على العرش المهني كل من ولده وأخيه وحفيده أبي ثابت عامر بن عبد الله، واستند الحفيد هذا الى بني زهان مستظهرا بهم على مزاحمة» (٢٨).

زناة أصلها ونسبها وأهم فروعها :

إذا كان قد وقع الوهم بأن بني مرين فرع من زناة، فانه من الضرورة البحث عن أصل هذه القبيلة ونسبها وموطنها الأصلي وأهم فروعها، يقول المؤرخون المحدثون الذين اهتموا بشئون الدراسة القديمة مثل «Gautier» : «لم يعثر على اسم زناة مع أسماء القبائل البربرية (الأمازيغ) التي وجدت في كتب المؤرخين القدماء من يونان ورومان وبيزنطيين».

أما ابن خلدون فيقول : «اعلم أن أصل هذه اللفظة هي صفة جانا التي هي اسم الجبل كله».

أما نسب زناة فقد ناقشه ابن خلدون فأثنى بآراء المؤرخين الذين ينسبونها

الى حمير أو التابعة أو العماليق، وأنكر ذلك جميعها، ثم اكتفى برد زناتة الى الجنس السامي، وليست زناتة وحدها بل اليرير والبتر، وإن كان المؤرخون المسلمون على أن اليرير بنو ويرانس ساميون.

ولكن الواقع التاريخي لا يوافقنا على أثر لقبيلة زناتة داخل تقسيم القبائل البترية ذلك أن المؤرخين «قسموا كتلة البتر الى أربعة قبائل هي : ضريسة ونفوسة واداسة وبنو لوى» (٢٩).

وما وجدت قبيلة زناتة إلا بدخول المسلمين الفاتحين، ذلك أنه من الصعب تعهد موقع زناتة جغرافيا مثل صنهاجة مثلا، لأنهم طوال حياتهم بنو رحل، على أن ابن خلدون يحدد موطنهم «بالمغرب الأوسط حتى انه ليتنسب اليهم فيقال وطن زناتة» (٣٠).

ويرى بعض المؤرخين أن زناتة فرع قبيلة ضريسة «والذي يلاحظ اختفاء اسم البتر شيئا فشيئا أمام اسم ضريسة، ثم اختفاء هذا الأخير أمام اسم زناتة بالتدريج» (٣١).

وبورد بن حمزة في أطروحته «دور قبيلة زناتة في الحركات المذهبية في المغرب الاسلامي» فوجد من فروعها بني يفرن، ومن أشهر أقبادهم «بنو واركو ومرغيسة» وقد انتشروا بآفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط، ثم تراجعوا الى المغرب أمام زحف القبائل الطرابلسية من لواتة وهوراة المنتشرة بالجنوب التونسي وضواحي الأوراس.

ومنها مغراوة «وكانوا من أوسع بطون زناتة» ولمغراوة فروع كثيرة أهمها بنو سنجاس وبنو غيار، وبنو رغة وبنو ورا، وكان انتشارهم بجبل راشد (عمور) وجبل كنيكرة والزواب وشلف، وفستطينة وواركلا والأعواط ومراكش والسوس.

ومنها جراوة ومن فروعها بنو يمينان وجديجين أيضا والأولى تسكن جبل الأوراس والثانية ملوبة والثالثة المغرب الأوسط، ومنها واغمرت وبنو ومانو وبنو يلموي وبنو بالدس وبنو واركلا، وبنو دمر ومن بطونها بنو ورغمة وبنو ورنيد وبنو ورتاتين وبنو غرزول وبنو تافورت.

على أن أعظم فروع زنانة حما قبيلة حراوة التي قاومت الفتح الاسلامي
أولا، ثم ساعدت على إنتاجه مؤخرا بانضوائها تحت الرايات الاسلامية ويلبها في
ذلك بنو يفرن فأين كان بنو مرين هؤلاء؟.

خصائص زنانة :

إذا كنا قد عرضنا في أول مقالنا هذا لخصائص « بني مرين » وملنا الى أنهم
من أصل حضاري قديم فإن كل الدلائل الانثروبولوجية تشير الى أن زنانة كانوا
بدوا ولم يعرفوا الاستقرار، وفي ذلك يقول الادريسي ان من المعروف عن زنانة
أنهم « قوم رحالة طواغن ينتجعون من مكان الى مكان غريب » (٣٢).

ومن أهم خصائص زنانة ما يأتي :

١ - تختلف فجاتهم عن سائر اللهجات البرية وتعود في أصلها الى السامية
لما لها من خصائص مشتركة مع اللغة العربية.

٢ - الفروسية ذلك أن أكثر زنانة فرسان يركبون الخيل» (٣٣).

٣ - التكهن : يقول الادريسي « لا يدري أحدا من الأمم أعلم من زنانة بعلم
الكشف » (٣٤) ويبدو أن المقصود التكهن بحالة الطقس المعروفة عند
العرب بعلم النوى أو الأنواء.

٤ - استهلاكهم اللحم بكثرة فأغلب طعامهم المشوي.

وكل هذه الخصائص تربطهم ربطا محكما بالعرب، الشيء الذي جعلهم
فيما رواه ابن خلدون - ينتسبون للعرب، ولعل ذلك هو الذي دفع ابن خلدون
الى ضم بني مرين اليهم، وربما كانت هجرتهم الى شمال افريقية في وقت واحد.

على أن العربي ارتبط بالجمل، وليس معنى ذلك أن فروسية زنانة تبعدهم
عن استعمال الجمل في انتجاع الصحراء فالثابت « أن الجمل وحيد السنم
كان موجودا بالصحراء ثم تعرض للفناء بعد العصر الجيولوجي الرابع، ثم ظهر

من جديد قادما من الشرق في القرن الأول الميلادي، وعلى وجه التقريب في نهاية القرن الأول الميلادي (٣٥)، وهو التاريخ المناسب لانتهار سد مأرب، على أن الهجرات من اليمن بدأت قبل ذلك من عدن إلى إفريقية، فقد أصبح الجمل منتشرا في القرنين الثالث والرابع الميلادي ما بين الحدود الموريطانية في الشمال الشرقي وحدود برقة شرقا، ومما يدل على أن العرب جاءوا قبل الإسلام إلى شمال إفريقية من الجنوب واستوطنوا الصحراء «أن البربر لم يعيشوا في الصحراء قبل أسرة سيفيروس Severes التي حكمت الامبراطورية الرومانية في الفترة الواقعة بين ١٩٣ - ٢٣٥م» تاركين الشمال الذي استولى عليه الرومان لاستغلاله في الزراعة.

أما متى كان ميلاد زناتة؟ فالجواب أنها جاءت من الجنوب في نجد سنة ١١٥ ق.م الميلاد أو قبل ذلك بقليل من اليمن، والدليل على ذلك أن كتاب اليونان والرومان لم يمشروا إلى غابات النخيل الموجودة بوادي ربيع جنوب بمسكرة بينما وجدت تفاصيل دقيقة في كتب التاريخ الإسلامية تتناول «نخيل القواررة» كل هذا يدفع إلى الاعتقاد بأن مؤسس هذه الغابات جاءوا مهاجرين من الشرق في عام الفيل (٣٦).

من هنا يتبين لنا أن العرب وصلوا إلى شمال إفريقية من الجنوب ومن الشمال الشرقي، والاحتفال الأقرب إلى التصديق أن «بني مري» ومن الشمال الشرقي قبل الإسلام، وأنهم اتخذوا في أول أمرهم من قبائل زناتة حلفاء لقرب اللغة والاتفاق في الخصائص.

الهوامش

(١) كعدة قبيلة فحطانية هاجرت بعد سبيل لغزو، وبرزوا في مكان يشرف على حصرموت فسمي باسمهم، ثم استقر بهم المقام حوالي سنة ٤٥٠م في بلاد نجد، يقول بيكليس «كانت كعدة محالفة للبيس»، وكانت «عزابة» تتألف من قبائل متعددة ذات نظام فلي.

(٢) المروكية تنسب إلى مزيك الذي دعا إلى الاشتراك في المال والمرأة من حيث أمهما من وجهة نظره سب الصحراء بين الناس، وقد قصي على هذا المذهب علي بن أبي شريك.

- (٣) د. محمد مصطفى الحار: تاريخ العرب ط الأثير سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م ص ٦٢.
- (٤) راجع ج ٣ ص ١٠٨ وراجع لسان العرب لأبن منظور ج ١٧ ص ٢٩٢ والأختالي لأبن العرج الأصفهاني ج ٢ ص ١٥١ والقاموس المحيط للفيروزآبادي ج ٣ ص ٢٧١.
- (٥) راجع العر ج ٧ ص ٤٥.
- (٦) المقدمة ص ٢١٥، ١٤٧، ١٦٢.
- (٧) ابن خلدون: المقدمة ص ٢١٥.
- (٨) المرجع نفسه ص ٢٣١.
- (٩) نفسه ص ٢٣٨.
- (١٠) المرجع نفسه ص ٢٧٠.
- (١١) تاريخ الخلفاء ص ٧٣.
- (١٢) المرجع السابق ص ٧٣.
- (١٣) نفسه ص ٧٥.
- (١٤) المقدمة ص ١٦٥ والعر ج ٧ ص ٧٧.
- (١٥) عرفت تلمسان في عهد الرومان يومارجلية، وفي القرن السابع الميلادي غرقت بأحاديث ويبدو أن تسميتها بتلمسان جاءت في العصر الإسلامي.
- (١٦) الشرة السباحية التلمسانية ص ١.
- (١٧) المرجع السابق ص ٧٦.
- (١٨) لاحظ قول ابن خلدون «من رثالة والعرب والبير» فذلك يدل على أن الميتين أدخلوا رثالة في تسميتهم الكبير في دولتهم فصاروا بعد أن كانوا ثلاثة آلاف مجموعا غلبوا. العر ج ٧ ص ١٨٨.
- (١٩) د. غوستاف لوبون: حصار العرب ص ٥٧٧ ط القاهرة سنة ١٩٤٨م.
- (٢٠) ابن خلدون: المرجع السابق ج ٧ ص ١٨٨.
- (٢١) الشيخ عبد الرحمن الخليلي: المرجع السابق ص ٧٨، ٧٩.
- (٢٢) نفس المرجع ص ٨٠.
- (٢٣) المرجع السابق ص ٨١.
- (٢٤) ابن خلدون: المرجع السابق ج ٧ ص ٩٥ وما بعدها.
- (٢٥) المرجع السابق ص ٨٣.
- (٢٦) Le Passé de L'Afrique du Nord. Paris 1952 P. 208.
- (٢٧) العر ج ١ ص ٢، ونظف «شانا» راجع ابن حرج جبهة أنساب العرب ص ٤٦١.
- (٢٨) اعرف الاستغنى لأخبار المغرب الأقصى للسلاوي ج ١ ص ٣١.
- (٢٩) بن حمزة: قبيلة زناتة ص ٦.
- (٣٠) العر ج ٢ ص ١.
- (٣١) الأديبي: وصف امهنية الشمالية ص ٦١.
- (٣٢) نفس المرجع ص ٦١.
- (٣٣) نفسه.
- (٣٤) بن حمزة: المرجع السابق ص ١٤.
- (٣٥) S.G-Sall: la Iripolitaine et le Sahara P. 160.
- (٣٦) بن حمزة: المرجع نفسه ص ١٦.